امبراطور المانيا والحرب

(٤)

الخطر الاصفر

كنت وانا في المانيا اسمع على الدوام عن « الخطر الاصفر » من رجال اهل نفوذ واقرأ عنهُ كثيراً في الجرائد اليومية والمجلات. فكنت اقول في نفسي ترى لِمَ لم نعنَ نحن الاميركيين بهذه المسئلة اكثر مما نعنى بها . وسبب تساؤلي هذا ظني ان تحدث دولة حربية كبيرة بذلك الخطر دليل على حقيقة وجودهِ وتفاقمهِ. ثم علمت ان الامبراطور هو اول من استعمل كلمتي « الخطر الاصفر » . ولطالما كتب الكتّاب مبينين ان المانيا ترتكب خطأً كبيراً بارسال ضباط المانيين لتدريب الجيش الياباني وبالسماح لمصانع السلاح والذخيرة وخصوصاً مصانع كروب ببيع اليابان المدافع والذخيرة وتعليم اليابانيين طريقة صنعها . وقد بنوا دعواهم هذه على كثرة اشارة الامبراطور في اقوالهِ وخطبهِ الى الخطر الاصفر وترديده هاتين اللفظتين من آن الى آن . ثم لما نشبت الحرب العظمى وخاضت اليابان غمارها ضدّ المانيا قام الالمان اصحاب النفوذ من كل جانب يقولون شامتين « نِعمَّا صنعت اليابان فقد ساعدتموها على ترقية جيشها وبحريتها فانقلبت اليوم علينا . أليس من الحق اننا اطلعناها على اسرار هذه الصناعة. فعسى ان نجد في ذلك عبرة لنا »

اما ما قلتُ في عضد سياسة الالمان بوجه خاص فهو انهُ لم يكن لهم حديث قبل الحرب غير التهويل بقوة اليابان زاعمين انها ستغتنم اول فرصة لاستخدام تلك القوة في حرب اميركا. وكان الامبراطور يشير حيناً بعد حين الى هذا الامر في خلال احاديثهِ معي. ففي سنة ١٩٠٥ مثلاً اي بعد عقد معاهدة بورتسموث بين روسيا واليابان بوساطة الرئيس روزفلت قابلت الامبراطور فاظهر لي انهُ مسرور جداً بتلك المعاهدة وقال « يحق لكم ان تفخروا كل الفخر برئيسكم لعقدهِ الصلح بين روسيا واليابان . فقد كان صنيعهُ هذا عجيباً بالحق لانهُ قضى على مطامع اليابان ولو قضاء وقتياً »

الاسطول الاميركي

وفي سنة ١٩٠٨ ساح الاسطول الاميركي سياحتهُ المشهورة حول الارض . فلما لقيت الامبراطور قال لي « اهنئكم واهنئ بلادكم بسياحة اسطولكم الباهرة حول الارض . فقد بلغ خليج مجدلينا على الساحل الغربي بعد ما دار حول راس هورن (اقصى اميركا الجنوبية جنوباً) ولم يحدث لهُ حادث ولم تتطرّ سفينة من سفنهِ ان تعود من حيث اتت لتصلح او ترمّ . ان هذا عمل عجيب يحقّ لكم ان تتفخروا بهِ » . قلت « ان جرائدنا تصغّر اسطولنا وتقول ان دروعهُ سخيفة وخصوصاً تحت خطّ العوم فاذا مالت احدى السفن الى هذا الجانب او ذاك استهدفت مقاتلها لنار العدوّ » . فاجابني « هذا قول هراء ان سفنكم حسنة لا عيب فيها وقد برهنت سفرتها على صحة ذلك . ونحن كنا عندنا سفن عمر الواحدة منها ١٥ سنين وهي ضعيفة تحت خط العوم ولكن سفنكم التي انشئت على النماذج الاخيرة ليست دون مثيلاتها في اساطيل سائر الدول . ولو اظهرت تلك السفن ضعفاً يخشى منهُ لكان هذا الامر مما يوجب قلقكم في هذه الآونة التي تتفاقم الخلاف فيها بينكم وبين اليابان على مسئلة المدارس في كليفورنيا . ولكن رئيسكم اتقى حرب اليابان ودرأ الخطر الاصفر وهو خطر طالما تنبأتُ بل انا اول من استعمل لفظتي « الخطر الاصفر » . ان رئيسكم رجل حكيم وقد ادرك هذا الخطر ايضاً فإرسال الاسطول حول الارض صفقة سياسية بديعة . واني اعلم ان روزفلت حال بها دون الحرب مع اليابان »

وطنية اليابان

طالما اساء الامبراطور ظنهُ في اليابان واليابانيين . قال لي مرة « سمعت ان هؤلاء اليابانيين لؤماء بالفطرة حتى انهم يسيئون الظنّ بعضهم ببعض . فقد اخبرني رجالي العائدون من اليابان ان البنوك والمحالّ التجارية الكبرى في اليابان تستخدم كتبة صينيين لانها لا تثق بالكتبة اليابانيين » . ومهما يكن رأي الامبراطور الشخصي في عيوب اليابانيين فليس في المانيا احدٌ يشكّ في عظم وطنيتهم . بل اذهب الى ابعد من ذلك فاقول انك بينا تسمع الالمان من جهة يفخرون بمحبتهم البعيدة النور لوطنهم تراهم من جهة اخرى يقدمون اليابانيين على

نفوسهم في محبة الوطن . فان من الاقوال الشائعة بينهم ان الياباني اوّل في وطنيته والالماني ثانٍ والانكليزي ثالث

الخطر الاصفر والحمى الصفراء ! !

كلما تولى المانيّ منصب الوزير الاكبر في المانيا كان يقول ان عقدة العقد امامهُ منع الامبراطور من التلفظ باقوال كان يضطر الى انكارها او تفسيرها تفسيراً يشكل عليهِ ولا يهتدي اليهِ الاّ بشق النفس . فقد سمعت ان بعض النواب الاميركيين قابلوا الامبراطور في برلين فكلمهم جهاراً عن الخطر الاصفر . ثم لما عادوا الى اميركا نشروا خلاصة احاديثهم معهُ في الجرائد الاميركية . فنمي خبرها الى سفير اليابان في برلين فقابل البرنس بولوف وكان يومئذٍ وزير الامبراطورية وقال لهُ في ذلك . فاجابهُ البرنس قائلاً « ان الامبراطور لم يقل شيئاً عن الخطر الاصفر وانما اشار الى الحمّى الصفراء وفتكها بالعمال الذين كانوا يعملون في منطقة ترعة بناما » ! !

ولما شهرت انكلترا الحرب على المانيا زارني البرنس بلاس معالجاً اسنانهُ وقال لي في خلال حديث معهُ « ستكون هناك حربان — الحرب الحاضرة وبها نستلم زمام اوربا الى الابد . وحرب ثانية على الامم الصفراء وهي حرب يرجح ان بلادكم تمدّ الينا يد المعونة فيها »

ومما يدلُّ على ان هذه الفكرة شائعة في المانيا انهُ منذ اعلنت الحرب حتى يوم ٢٣ اغسطس سنة ١٩١٤ اي يوم دخول اليابان فيها ما فتئ اهل برلين يكرمون اليابانيين المقيمين بين ظهرانيهم اكراماً تقزُّ عنهُ نفس الحرّ . فقد شاع وذاع بينهم قبل اعلان اليابان الحرب على حكومتهم انها تنوي مهاجمة روسيا فتحول كرههم لهذه الامة الصفراء اعجاباً وحبّاً في مثل طرفة عين . وكانوا كلما لقوا يابانياً في الاسواق حملوهُ على الراحات وقبلوا مفرقهُ وهتفوا لهُ ولامتهِ . ثم شهرت اليابان الحرب على المانيا فقامت برلين لذلك وقعدت غيظاً ودوّر اهلها على من فيها من اليابانيين فلم يجدوا احداً منهم لانهم كانوا قد فرُّوا من برلين متسللين قبل دخول دولتهم هذه الحرب ولو وجدوهم لصبُّوا عليهم جام نقمتهم كما يستدلُّ من معاملتهم للصينيين المقيمين في بلادهم . فانهم كانوا حيثما وجدوا صينياً بالغوا في اهانتهِ امالانهم ظنوهُ يابانياً لقرب وجوه الشبه بين الامتين او لانهم واليابانيين من سلالة واحدة

انتقاد اميركا

اجتمعت بالامبراطور بعد دخول اليابان الحرب فرأيته يشكو مرّ الشكوى من اميركا . قال « ترى ما يجول في صدر رئيسكم وهو يسمح لامة صفراء بمهاجمة امة بيضاء . فاليابانيون يهاجمون الآن كياوشاو وكان في وسع اميركا ان تمنع ذلك برفع اصبع واحدة فتلزم اليابان مكانها » . ولما سقطت كياوشاو عاد فتسلل من اميركا بقوله « كيف يسمح رئيسكم لليابان بزيادة قوتها على حساب امة بيضاء . فقد خسر العالم الصين الى الابد واميركا هي الدولة الوحيدة التي كانت تستطيع منع هذه الخسارة ولكن اليابان نشبت اصابعها في الصين فقدناها ابد الدهر »

ولما دخلت اميركا الحرب قال لي في حديث « ان لرئيسكم ولسن اربعة اغراض من ذلك . الاول التأمين على المال الذي اقرضتموه الحلفاء . والثاني ان يكون له مقعد حول مائدة الصلح . والثالث ان يمرّن جيشكم واسطولكم بعض التمرين ولكنه على حسابنا لسوء الحظ . . والرابع وهو الاهم ان يتأهب لحرب اليابان التي يعلم ان لا مناص له منها »

نصيحة لوجه الله

قبل سفري من برلين اجتمعت بضابط المماني عظيم فقال لي ان اميركا اخطأت خطأ كبيراً اذ ارسلت الذخائر والمدافع والمهمات الى روسيا بطريق اليابان . ووجه الخطأ ان اليابان استبقت لنفسها هذه الذخائر والمدافع والمهمات وهي من صنف حال وارسلت الى روسيا بدلاً منها ذخائر ومدافع ومهمات من صنعها وهي دون لا تصلح لشيء. قال « فنصيحتي لاميركا ان تطيح رأس كل ياباني مقيم في بلادها وتتخلص من هذا الخطر الداخلي » .وكان اولى به ان ينصح لنا باطاحة رؤوس بعض الالمان الانذال المقيمين عندنا اذ قد برهنت الايام على انهم اشدّ خطراً من اليابانيين اضعافاً مضاعفة

رياء الامبراطور

على انهُ بالرغم مما قال الامبراطور وفعل في السنين الماضية انذاراً للناس من الخطر الاصفر وبالرغم من استفظاعهِ لفكرة محالفة امة بيضاء لامة صفراء نراهُ يحبذ موالاة هذه الامة الصفراء متى رأى في ذلك مصلحة لهُ . ففي ١٩ يناير سنة

١٩١٧ قبل شهرين الحرب على المانيا وقطعنا علاقاتنا السياسية بها ارسل زمرمان وزير خارجية المانيا الى فون ايخارد معتمد المانيا في المكسيك مذكرة من الأمم المذكرات التي صدرت من وزارة خرجية دولة تحسب في عداد دول المرتبة الاولى. فقد كان من حسن حظنا ان حكومتنا تناولتها سراً من الاسلاك التي ارسلت عليها وهي تدل باجلى برهان على رياء الامبراطور في مسئلة الخطر الاصفر. اقول الامبراطور لان زمرمان لم يكن سوى آلة في يده كما هو مشهور. وهذا نص المذكرة:

« عولنا على ابتداء حرب للغواصات في ١ فبراير تكون بلا ضابط ولا رابط. على اننا رغم ذلك ننوي المحافظة على حياد اميركا. فاذا اخفقنا في محاولتنا هذه فاننا ننوي عقد محالفة مع المكسيك على هذا الاساس: نحارب معاً ونصالح معاً ونمدها بالمال على ان تحارب لاسترداد الاراضي التي فقدتها في ولايات المكسيك الجديدة وتكساس واريزونا. واني اترك لكم تفاصيل التسوية. وعليكم ان تبلغوا رئيس المكسيك مضمون هذه المذكرة حالما تتأكدون ان الحرب واقعة مع اميركا لا محالة وتبالغوا في الكتمان وتقولوا لرئيس المكسيك ان يفاتح اليابان بهذا الامر من تلقاء نفسه للموافقة عليه. وفي الوقت عينه اعرضوا وساطتكم بين المانيا واليابان. والمرجو ان تخبروا رئيس المكسيك ان اعلان حرب الغواصات بلا شفقة ولا حدّ يبشر باكراه انكلترا على عقد الصلح في بضعة اشهر »

الثقة بالنصر

منذ ١٢ سنة شهدت مناورات الجيش الالماني في مدينة لجنتز بولاية سليزيا بدعوة بعض اصدقائي من اصحاب الصحف. وكان في جملة من شهدها مندوبو انكلترا وفرنسا واميركا العسكريون. والظاهر ان المناورات وقعت في نفوسهم وقعاً عظيماً وخصوصاً مندوبي فرنسا منهم. فقد سمعت فيما بعد ان احدهم كتب كتاباً يقول فيه « تستطيع المانيا بجيش مثل هذا ان تضم فرنسا في ستة شهور ». واتفق اني ذكرت هذا القول على مسمع الامبراطور فقال « ستة شهور. ارجو ذلك. بل اقل منها »

لما عبأت المانيا جيوشها كان كل الماني يعتقد انهُ لا يمضي الاّ القليل حتى تعود تلك الجيوش الى اوطانها سليمة منصورة. وبذل ولاة الامر الخريون كلّ جهد

لجعل مدة خدمتهم العاملة خفيفة الوطأة عليهم علماً منهم انها لا تزيد على اسابيع معدودة . وبلغ من اسراف البلاد في مواردها ان تكاثرت الملابس الصوفية على الجنود فاتخذوا منهم اغطية لخيلهم . ولم يدر في خلد احد انهُ سيأتي على الامة يوم تلبس فيهِ ملابس الورق رمتها

حكي ان ضابطين المانيين جلسا يتناولان في قهوة بعد شبوب نار الحرب . فمرّت بهما بعض السيدات فقالت احداهنّ « انظرن الى هذين الضابطين يعاقران الخمرة فلم لا يحاربان في الميدان » . فنهض احدهما من مقعده ودنا منهنّ وقال « ان عملنا أشق منذ شهور . وكنا نشتغل من الفجر الى الليل كلّ يوم بخطط تنفذها الجيوش الآن . وقد جاء وقتنا لنستريح »

وكان ولاة الامر يستخفون مقاومة فرنسا ومقاومة الجيش الصغير الذي تستطيع انكلترا ان تنفذهُ لمعاونتها هذا اذا كانوا قد حسبوا حساباً لنزول انكلترا الى الميدان . واني اعلم ان الامة الالمانية لم تُطلع على مقاومة الحلفاء العجيبة في ايام اغسطس وسبتمبر العصيبة سنة ١٩١٤ ولا يزال جمهورها يجهل الى الآن تلك المقاومة حتى انهُ لم يسمع بمعركة المارن الشهيرة

وكنت لا اقرأ في تلك الايام الاّ الصحف الالمانية اذ لم يتيسر لي غيرها فكنت ارى فيها كلّ يوم ان الفرنسويين يفرُّون كالارانب وان قوتهم المعنوية فارقتهم وان الجيش الالماني يزحف على باريس بسرعة اعظم مما كانوا يقدرون . وكنت ارى في هذه الصحف عناوين مثل هذه « نصر على نصر — فابات كومبان تحترق — سقوط باريس منتظر كل ساعة » . وكانت الشوارع تغصّ بالسابلة الذين يجتمعون لقراءة تقارير الحرب والملاحق توزع على الجمهور مجاناً

وبعد معركة المارن ببضعة اسابيع كنت اطالع جريدة المانية فعثرت في زاوية من زواياها على ترجمة خبر من جريدة فرنسوية يقول ان اهل باريس يخرجون للنزهة ايام الآحاد الى اطراف ميادين القتال لجمع آثار المانية مثل خوذ وسيوف وبنادق . فقلت في نفسي ان كان الالمان يولون التقدم كما يقولون فكيف يتيسر لاهل باريس ان يجمعوا آثار جيش المماني متقدم . فلا بدّ انهم يتقهقرون . ومضى وقت طويل قبلما وقعت في يدي جريدة انكليزية تؤيد حدسي هذا واملي

الخدمة الالزامية في انكلترا

بعد ما سنت انكلترا قانون الخدمة الالزامية دعيت لمقابلة الامبراطور في معسكر الجيش الاكبر وكانت الحرب قد طالت ثلاثة اضعاف ما كان الالمان يرجون . فقال لي الامبراطور « ما احمق انكلترا بادخال الخدمة الالزامية الآن . فهي تظن انها تنجز في اشهر قلائل ما انجزته المانيا في ستة سنة . ان الجيوش والضباط لا يخلقون في يوم وليلته . ونحن ما فتئنا نستعد منذ ايام فردريك الكبير »

فقلت « ان ما تقولهُ جلالتكم صحيح ولكن ولايانا الشمالية في الحرب الاهلية الاميركية ادخلت الخدمة الالزامية بعد ابتداء الحرب بسنتين »

قال « ولكن اظنكم طالت حربكم . ان هذه الحرب لا تطول الى هذا الحدّ وسيعلم الحلفاء قوة المانيا ويشعرون بها قبلما ينتفعون بالخدمة الالزامية التي ادخلتها انكلترا الى جيشها . وبينا تبني انكلترا ببطء بناء جيشها الحقير ترى اساطيل اميركا وبواخرها كلّ يوم على ازدياد وترى الدولار يحلّ محل الجنيه في مالية الدنيا . واعلم يا دايغز ان انكلترا ستملّ الحرب عن قريب وتنظر بعين الجازع الى قوة اميركا النامية »

وسخرت صحف المانيا بعزم انكلترا على انشاء جيش بالخدمة الالزامية ونشرت صحفها المصورة صور البطالين الذين يمرحون في هيدبارك (حديقة لندن العمومية) لتري قرّاءها مادّة الرجال الذين تحاول انكلترا تأليف جيوشها منهم وقالت ما يفهم منهُ انها ستصنع الجيوش الافريقية في مقدمة القتال وجيشها هذا المؤلف من الغواة في المؤخرة

كذلك بالغت في تصغير الجيش الفرنسوي ووصفت الجيش الروسي بانهُ لا يؤبه لهُ بالمرة . ومما قالت عن الفرنسويين ان معهات جيشهم حقيرة حتى ان الضباط يذهبون الى الميادين وهم يلبسون احذية لماعة (جلد قزاز) . وقالت عن الروس ان الصفّ الاول منهم يحمل بنادق والصفوف الباقية مسلحة بالهراوى والسنابيت

هذا كلهُ قد يكون صحيحاً ولكن غاب عن الحكومة الالمانية ان ما تقول

عن عدم استعداد جيوش الحلفاء للحرب يناقض مالا تزال تصيح به ملء شدقيها وملء الخافقين من ان الحلفاء هم الذين اثاروا الحرب لا الالمان

ومرّت الايام والجمهور الالماني يجهل واقعة المارن حتى عاد الضباط والجنود الذين اشتركوا فيها الى اوطانهم بالاجازة فخبروا بما سمعوا ورأوا . والذين لم يعودوا الى اهلهم كتبوا من خنادقهم الجديدة يصفون هول ما عانوا من المشقة وشظف العيشة حتى اضطروا ان يأكلوا البطاطس النيئة والفت وغيرها من البقول التي كانوا يجدونها في الحقول وظلوا على هذه الحال اياماً طوالاً

الامبراطور وهندنبرج

ان كره الامبراطور لهندنبرج قديم العهد فهو لم يغفر لهُ هفوتهُ التي ارتكبها في احدى المناورات السلمية ذلك انهُ اسر الامبراطور وجيشهُ واركان حربهِ بضربة من الضربات البكر التي لا يضربها الاّ نوابغ القواد . فلما شهرت الحرب كان هندنبرج من ضباط المعاش مقيماً في هنوفر ولو ترك الامبراطور وشأنهُ لبقي هندنبرج في المعاش الى ما شاء الله . ولكن لما كان الروس يجتاحون بروسيا الشرقية رأت القيادة العليا ان تعزل القائد الذي كان موكلاً بالدفاع عنها فقام الناس قومة رجل واحد يطلبون تعيين هندنبرج مكانهُ بدعوى انهُ هو الرجل الوحيد الذي يستطيع صدّ تيار الروس الجارف . فاضطر الامبراطور الى تعيينهِ مكرهاً . ولم يكد يستلم القيادة حتى ضرب الروس ضربتهُ المشهورة فزاد انتصاره كره الامبراطور اياهُ وجعل يلتي العثرات في سبيلهِ

وكان مولتكي حبيب الامبراطور قد نفّر قلوب الامة منهُ بكسرة المارن وفوز البلجيكيين والانكليز بالنجاة من اقرس على جسر واحد مصنوع من القوارب . فعزل من القيادة العامة وعيّن فلكنهين مكانهُ ولكن قيل في اقالتهِ ان سببها اعتلال صحتهِ . ثم جاء اخفاق الالمان في فردون وتحفز رومانيا لدخول الحرب في جانب الحلفاء فسقط فلكنهين في دورهِ . وحاولت القيادة العليا حينئذٍ ان تمنع الامبراطور من مفاتحة هندنبرج في اسناد منصب القائد العام اليهِ ولكن بلغ من قلق الامبراطور على الحالة الحربية ان دعا هندنبرج وفلكنهين اليهِ للمشاورة في الامر . والمقول ان فلكنهين اراد ان يتولى رياسة هذا المؤتمر وان يكون المتكلم الاول فيهِ لانهُ اعلى من هندنبرج رتبة وعليهِ قاطع هندنبرج وهو

يحادث الامبراطور فقال له هندنبرج « صمت ومتى فرغت من الكلام مع جلالته حينئذٍ تكلَّم » . ثم بسط للامبراطور بعض غلطات فلكنهين الكبيرة قائلاً « من مع بقائد يهاجم عدوه في اقوى مواقفه » يشير بذلك الى هجوم فلكنهين على فردون

والظاهر ان الامبراطور اقتنع باقوال هندنبرج فسيئه رغم مشيئته قائداً عاماً للجيش بدل فلكنهين . ومع شدة حسده اياه على اجتماع قلوب الامة حوله لم تخف عليه مهارته الحربية ولم يستطع ان يجحد فضل انتصاراته . وبتعيينه اياه سرّي عنه بعد ان غلبته الكآبة وانتعشت آماله

ولمّا تمّ اجتياح الجيش الالماني لرومانيا اعتقد الامبراطور ان مسئلة الطعام حلّت على تمام المرام وقد كانت هذه المشكلة الغيمة السوداء الوحيدة التي اعترضت في سماء آماله ولم تتقشع . قال لي مرة بهذا الصدد « لم يبقَ للحلفاء امل بعد الآن في تجويعنا . فان رومانيا وسربيا في ايدينا وهما بلدان عظيمان في مواردهما ومصادرهما الزراعية وسيكفيانا حاجاتنا فنحيط بهما المساعي التي يبذلها اعداؤنا لتجويعنا . بل ربما جاعوا هم لا نحن . فلا تنسَ اننا نحتكر مناجم البوتاس في الدنيا واذا لم تمدّ المزروعات الاميركية السديد الوافي جعلت المواسم تقلّ سنة فسنة وهي لا تنال حاجتها من السماد الاّ اذا سمحنا لها به »

فشل بلونات تسبلن

لا ريب ان فشل بلونات تسبلن من وجهة حربية خيب آمال الامة الالمانية خيبة عظيمة لانها كانت تحسب لها حساباً كبيراً في انزال المصائب بانكلترا ولكن لا يمكن القول ان الامبراطور كان يرى هذا الرأي . بل عندي ما يحملني على الاعتقاد انهُ لم يكن يعلق على هذا البلونات كبير شأن الاّ من حيث ارهاب غير المحاربين من السكان الآمنين . وبعد وفاة انكونت تسبلن بيوم او يومين سنة ١٩١٧ زارتني سيدة لمداواة اسنانها فامدت اسفها لان الكونت لم يعش ليرى انتصار البلون الذي اخترعهُ . وبعد ذلك قالت الامبراطور وذكرت امامهُ ما قالت هذه السيدة فاجابني بما يأتي « اعتقد ان الكونت عاش زماناً كافياً ليرى فيه كلّ ما تستطيع بلوناتهُ ان تفعلهُ »